



القصة المثيرة

لتهريب الصحفيين الفرنسيين من بابا عمرو

ترجمتها عن الفرنسية: جنان أسامي العوف

نشرت المقالة الأصلية في جريدة "لافيجارو" بتاريخ 2/3/2012

تمكنت أخيراً إديث بوقيه وزميلها ويليام دانييلز، آخر الصحفيين الذين احتجزوا لمدة تسعه أيام في حي بابا عمر بحمص، تمكنوا من العودة إلى فرنسا يوم الجمعة. إليكم قصة تلك المغامرة المجنونة.

في غرفة في مشفى بيروت الكبير بدت إديث بوقيه وDanielle وWilliam Daniellaz مبتسدين مرتاحين. بعد خمسة أيام مليئة بالمزالق والمخاطر وصل الصحافيان إلى بيروت مساء الخميس، بعد عدة ساعات من اجتيازهما الحدود اللبنانية، بانتظار عودتهما إلى فرنسا قصا علينا حكاية الرحلة. إن هذه الرواية جديرة بأن تكون قصة من قصص المغامرات، وهي أيضاً شهادة بشجاعة المنشقين في الجيش السوري الحر الذين عالجوهما وحموهما ونقلوهما تحت القذائف وعبر خطوط الجيش النظامي التي تحاصر المدينة، وكان ذلك على حساب حياتهم نفسها في كثير من الأحيان.

أبدت إديث - بالرغم من إصاباتها - رباطة جأش كبيرة، وتکاد تبدو كالمعتدزة عن كل الفلق الذي سببتها. قالت والدتها على الهاتف: "حالياً نحن سعداء جداً جداً، أما بالنسبة للباقي فسنناقشه ذلك فيما بعد". تتوق إديث لشيء واحد، هو أن تستطيع المشي والجري ثانية، أما دانييلز فقد لاحظ أنه لم يلتقط صوراً تذكر بسبب انشغاله بتهريب زميلته.

دخل الصحافيان سوريا سراً بفضل الجيش السوري الحر الثائر على الديكتاتور بشار الأسد، وصلا إلى حي بابا عمرو، المحاط بقوات الجيش النظامي، مساء 21 شباط، وكانوا قد اجتمعوا في الطريق بالمصور ريمي أوشليك، صديق دانييلز الذي كان قد غطى معه الثورة الليبية في الربيع الماضي.

بمفرد وصولهم اجتمعوا بمجموعة صغيرة جداً من مراسلي الحرب التي كانت موجودة في المدينة المحاصرة. كانوا ينزلون

في بيت من ثلاثة طوابق سماه المنشقون "المركز الإعلامي". كان الثوار يرحبون بأذرع مفتوحة بالصحفيين الذين سياسعدون في نقل معاناة المدينة المحاصرة إلى العالم الخارجي، المدينة التي تقصصها المدفعية السورية منذ شهر. كانت قد سبقتهم إلى هناك مراسلة الصندي تايمز، ماري كولفن، إحدى أشهر الشخصيات في المجتمع الخاص بمراسلي الحرب.

كانت ماري دائمًا أول الوافصلين إلى الخط الأمامي وآخرهم مغادر، بشجاعتها المنقطعة النظير وعيتها التي تغطيها برقة سوداء نتيجة إصابة لحقت بها في سريلانكا، وكانت قد قررت البقاء في حمص بالرغم من بوادر الاقتحام الوشيك للمدينة من قبل الجيش السوري. بول كونروي، مصورها، كان أيضًا أحد قدماء المهنة، شأنه في ذلك شأن خافير إسبينوزا، مراسل الشرق الأوسط في الجريدة اليومية الإسبانية الشهيرة "إل موندو"، والذي يجول منذ أكثر من عشر سنوات كل المناطق الساخنة في أفريقيا والشرق الأوسط.

صباح اليوم التالي، وكل يوم، بدأت حمم المدفعية تنهاك على الحي، ولكن هذه المرة كانت قذائف الكاتيوشا الرهيبة -122 مم- التي كان يطلقها الجيش السوري. كانت تسقط قريباً جداً من المنزل. حسب شهادة إديث ويليام: "كان هناك على الأقل خمسة انفجارات متتابعة قربة جداً، كان لدينا الانطباع فعلاً بأننا مستهدفون مباشرة. الناطدون السوريون الذين كانوا معنا والذين اعتادوا على ذلك القصف أدركوا مباشرة الخطر المدحّق، قالوا لنا: يجب المغادرة فوراً". بمجرد التقاط الجميع لمعادتهم أسرعوا جميعاً باتجاه الباب. ماري كولفن وريمي أوشليك كانوا أولи الخارجين إلى الشارع الضيق، وسمع شاب سوري صوت قذيفة فأمسك في اللحظة الأخيرة بإديث ويليام عند عتبة الغرفة ومنعهما من الخروج. استقرت القذيفة أمام المبني الصغير تماماً، كان الانفجار رهيباً، وكان كل من ماري كولفن وريمي أوشليك في الموقع الذي انفجرت فيه القذيفة فُقدلا على الفور.

في المشفى الميداني

في المنزل قذفت قوة الانفجار باب الغرفة باتجاه الداخل. وسط الغبار والركام الذي سببه الانفجار أدركت إديث أنها لم تعد قادرة على تحريك رجلها، فصرخت، وتلمست طريقه إليها وسط دخان كثيف واستطاع سحبها إلى زاوية في الغرفة خلف الثلاجة، ثم لجأ إلى الحمام بانتظار أن تهدأ حمم القصف في الخارج. بمجرد أن هدأ القصف هرع الشاب الذي منع إديث ويليام من الخروج في اللحظة الأخيرة (والذي أنقذ حياتهما بدون شك) هرع لطلب النجدة، ثم عاد بسيارة للجيش السوري الحر نقلتهما إلى مشفى ميداني جهّزه الثوار في شقة صغيرة. إحدى الغرف هيئت لتكون غرفة عمليات، وثلاث غرف أخرى هيئت لتكون غرفاً للعيادة، حيث يعمل ممرضون وأطباء متقطعون ليلاً ونهاراً لتقديم الإسعافات الأولية لعشرات المدنيين الذين يصابون كل يوم: نساء وأطفال ورجال من ضحايا قصف المدفعية السورية الذي لا يتوقف.

مع استمرار القصف من حول البناء حُفنت إديث بالمخدّر لتهيئة الألم وفُحصت إصابتها، تقول: "عملوا صورة شعاعية فاكتشفوا كسرًا في عظم الفخذ. قالوا لي: تحتاجين إلى عملية جراحية سريعة، يجب إخراجك من هنا. ومن ثم ابتدأت رحلة الهروب الكبير".

استقر الصحفيون الأربع في أكثر المنازل أمناً في بابا عمرو بملائمة المشفى، وهي مجموعة من المنازل المتلاصقة التي تحيط بفناء ضيق والتي كانت غرفها الداخلية في مأمن نسبي من القصف المنهمر بشكل متواصل. خافير إسبينوزا ويليام دانييلز لم يُصابا، أما بول كونروي فكان قد أصيب ولكنه كان قادرًا على المشي. إصابة إديث كانت الأكثر خطورة، فبالإضافة إلى عدم تمكّنها من الحركة كان الأطباء يخشون من تشكّل جلطة في الساق المصابة قد تصل إلى القلب، وعندها سيكون موطها محققاً.

كان حي بابا عمرو محاصراً؛ الشوارع مقطعة والمرتفعة والجيش السوري يفتحون النار على كل شيء يتحرك. الصلة الوحيدة للحي مع العالم الخارجي كانت قناة بطول ثلاثة كيلومترات كانت ما تزال بعض الإمدادات الشحنة والأدوية تمر من خلالها. كانت تلك القناة هي ممر دخول الصحافيين إلى بابا عمرو، إلا أن إصابة اديت جعلت من المستحيل إدخالها في القناة التي لأن الدخول إليها كان من خلال سلم في فتحة صغيرة (فتحة المجرى).

انقطاع شبه تام عن العالم الخارجي

كان الأمل يتمثل أولاً في سيارات الإسعاف. طواقم الصليب الأحمر في دمشق وجنيف استنفرت طواقمها واتصلت بالهلال الأحمر السوري وحاولت الحصول على هدنة من قبل القوات التي تحاصر المدينة لإجلاء الجرحى السوريين والأجانب المحاصرين في بابا عمرو. في الداخل لم يكن للصحافيين الأربعوا اتصال بالعالم الخارجي إلا بشكل عرضي ومحدود، عدة اتصالات عبر سكايب عن طريق الخط الوحيد للإنترنت الذي استطاع الثوار وصله، ولكنه لم يكن كافياً لأي نوع من أنواع الاتصال المجدى. وكان عليهم فوق ذلك اجتياز الشوارع التي يتربص في أنحائها القناصة للوصول إلى ذلك البناء الذي يوجد فيه خط الاتصال. في بابا عمرو التي تُتصف طوال اليوم - باستثناء ساعة الظهيرة في بعض الأحيان - يبقى الناس مختبئين في بيوتهم طوال اليوم، ثم يخرجون مساء، حيث تعج الشوارع حينها بالناس. تتذكر إيديت: حين تسقط القذائف كانوا يقولون لنا: ها هو بشار يلقي عليك التحية!

يوم 24 شباط توقف القصف المتواصل فجأة. يقول ويليام: "كانت أول مرة يحدث هذا". وقد استغل الفرصة، هو وخافيير إسبينوزا، للذهاب لإلقاء نظرة على جثماني ماري كولفن وريمي أوشليك اللذين كانوا ملفوفين في قماش وموضوعين في غرفة مبردة نسبياً. قدم لهم السوريون تعازيهما وكانوا قد جمعوا أغراض الصحفيين. كتب هو وخافيير أسماء الفقيدين على القماش الذي يلفهما، فقال الثوار: "لا تقلقاً، سنعمل على إخراج الجثمانين معكم". استعاد ويليام آلة التصوير الخاصة بصديقه ريمي. علبتها الصلبة كانت فارغة تماماً وقد انطرت نصفين بسبب الانفجار الهائل. عاد الصحفيان بعدها أدراجهما إلى الملجة.

الصلب الأحمر محتجز على بعد 500 متر

يتذكر ويليام: "في طريق العودة رأينا عدة سيارات إسعاف للهلال الأحمر السوري، ولا أحد من الصليب الأحمر. لمحنا الطبيب السوري الذي يقود القافلة الصغيرة وقال لنا: مرحباً، لا بد أنكم الصحفيان؟ لم نأت من أجلكم بل أتينا من أجل الجرحى السوريين، لكنني أستطيع توصيلكم بممثل الصليب الأحمر الذي يوجد على بعد 500 متر من هنا. الجيش السوري لا يريد أن يسمح للصلب الأحمر بالتقدم، ولكن إن صعدتم معنا نستطيع أن ننقلكم إليهم في مستشفى حمص". ثم أردف قائلاً: "عليكم أيضاً أن تشرحوا للسلطات السورية سبب وجودكم هنا".

من خلال جهاز الراديو الموجود في إحدى سيارات الإسعاف استطاع ويليام أن يتصل بمسؤولية الصليب الأحمر في سوريا ماريان غاسيه، وأن يسألها عن سبب عدم قدرتها على اجتياز الخمسين متراً التي تفصلها عنهم. قالت إنها تتفهم تماماً مشكلتهم وإنها تتفاوض وعندما أمل كبير في الحصول على تصريح يمكنها من الوصول إليهم.

"اجتمعنا نحن الأربعوا واتفقنا على طلب وجود سيارة على الأقل من الصليب الأحمر في القافلة قبل مغادرتنا. كنا نخاف أن يحدث شيء مشابه لما حدث لجبل جاكبيه قبل أن يُقتل في القصف المزعوم للثوار والذي أتى من حيث لا يدرى أحد. قلنا لأنفسنا: ستُطلق علينا النار، وستقول السلطات: إن الإرهابيين قتلواهم!"

مسعف الهلال الأحمر ألمح إلى هجوم متوقع قد يقوم به الجيش السوري الحر أثناء المغادرة، كما أن تصرفات المسعفين السوريين أقفلت الصحفيين أيضاً. يقول ويليام: "بدا وكأنهم يبحثون عن شيء ما، كانوا ينظرون في كل اتجاه". عندما اكتشفوا غرفة إدبيت دخل حوالي ثلاثين شخصاً إليها. الجميع يذكر في بابا عمرو أن الجرحى الذين تم إجلاؤهم بواسطة الهلال الأحمر انقطعت أخبارهم ولا أحد يعلم عنهم شيئاً من ذلك الوقت.

الشيء الوحيد الذي ترددنا في فعله هو تسجيل الفيديو

عندما حل الليل كان الصليب الأحمر ما زال ممنوعاً من الدخول وغادرت سيارات الإسعاف (للهلال الأحمر) المكان. يروي إدبيت ويليام: "قالوا: سنعود لأنذركم خلال عشرين دقيقة، ولكننا لم نرهم بعد ذلك. إلا أنهم بالمقابل كانوا قد حددوا مكاننا بالضبط، وفي المساء سقطت القذائف بجوار مبنانا تماماً. يقول ويليام: "عنفنا سفير فرنسا لأننا لم نصعد في سيارات الإسعاف. قالوا لنا أن ننتظر وأن سيارات الإسعاف ستعود في الغد".

خشى الصحفيون أن تقبض السلطات السورية عليهم، ولكنهم مع ذلك قرروا المغادرة عندما تصل سيارات الإسعاف. تقول إدبيت: "استعدنا لذلك بتمزيق صفحات كرايسينا وإتلاف شرائح الهاتف المحمول اللبناني الذي كان بحوزتنا لما يحتويه من أرقام، تجنباً لتوريط أي أحد". ولكنها تؤكد أن الثوار السوريين لم يطلبوا منها أي شيء من ذلك ولا هم منعوهم من الصعود في سيارات الإسعاف كما ادعّت روايات النظام.

تقول إدبيت: "لم يكن لدينا انتباع بأن الجيش الحر يمنع سيارات الإسعاف من الدخول. لقد قبلوا كل طلبات وقف إطلاق النار، ولم يكونوا هم من يقصف المدينة على كل حال. الشيء الوحيد الذي ترددنا بفعله هو تسجيل الفيديو. كان التسجيل فكرتهم، وفي البداية لم نتشجع له، ولكننا لاحظنا خشيتهم الشديدة من أن يدعّي النظام أننا محتجزون عندهم كرهائن ويُظهرهم على أنهم إرهابيون".

لكن سيارات الإسعاف لم تعد، أو على الأقل لم تقترب بشكل يمكننا من الوصول إليها. الأحد مساءً أُنذر الحي الثائر بأن دبابات الفرق الرابعة المرعبة الخاصة ب Maher الأسد قد وصلت للدعم، لقد بات الهجوم النهائي وشيكاً في صباح اليوم التالي بلا شك. تذكر إدبيت: "قال لنا السوريون إنهم سيحاولون إجلاء كل الجرحى وعرضوا علينا أن نكون من بينهم". قرر الصحفيون عدم ترك تلك الفرصة الأخيرة تفلت من بين أيديهم.

قام ويليام والممرضون بوضع إدبيت على نقّالة وثبتوها بلفها بشرط لاصق. "من حسن حظي -نظرأً لما سيحدث لاحقاً - أني كنت ملصقة تماماً على النقّالة". حمل الجرحى في السيارات وتم نقلهم ليلاً حتى مدخل النفق. تقول إدبيت: "كان هناك العشرات من الجرحى، ووقتها فقط استطاعت أن أرى الإصابات الفظيعة لبعضهم لأدرك أن إصابتي كانت أقل بكثير من أن تكون أسوأ للإصابات".

عبور النفق: محاولة لم تنجح

حالة إدبيت كانت من أصعب الحالات نقاًلاً، لذلك كانت من أواخر من دخل النفق. أدخلها المسعفون ملصقة على نقّالتها بشكل عمودي في الفتحة الضيقة، الممر الضيق يبلغ ارتفاعه 160 سموكتنا نتقدم منحنين تماماً. كنا نتجاوز بعضنا بعضاً بصعوبة، فالنفق كان مليئاً بالناس الهاربين من الحي. كانت قافلة الجرحى تتقدم ببطء، وكان النفق منهاراً في بعض الأماكن. الظلام كان تاماً وكنا نتقدم على ضوء المصايبع التي تثبت على الجبين. خافير إسبينوزا وبول كونروي كانوا في المقدمة. أربعة متطوعين كانوا يتناوبون فيما بينهم على حمل إدبيت كل ثلثين متراً، وما إن شارفوا على الوصول إلى

الطرف الآخر من النفق حتى ابتدأت موجة من الفرع تحت الأرض. الجيش السوري كان قد أطلق للتو قذيفة مدفعة على مدخل النفق! بول كونروي، الذي كان قد وصل إلى الخارج، انفصل هو ومجموعته عن الآخرين واختفوا في الظلام تحت المطر. خافيير إسبينوزا الذي حمل جريحاً إلى المأمن وجد نفسه هو الآخر معزولاً مع مجموعة صغيرة أخرى.

إديث وويليام بقيا محبوسين تحت الأرض. كانت الفوضى تعم النفق؛ أصوات الانفجارات تدوي في النفق الذي امتلأ بالغبار ورائحة المتفجرات النفاذه. انتهى الأمر بالمسعفين بترك إديث على الأرض ليبحثوا عن النجدة. تقول إديث: “أحدهم وضع سلاحه الكلاشنيكوف عليّ ثم وضع يده على جبيني وردد دعاء، ثم ذهب. لم أكن مطمئنة.”

وجد ويليام وإديث نفسيهما وحيدين في الظلام وسط الظلام والدخان، ودوى أصوات طلقات نارية. تقول إديث: “لم نكن نعلم شيئاً، لم نكن نفهم شيئاً مما يجري، هل كان المخرج مسدوداً؟ هل سينزل الجنود السوريون؟ كانت لدى رغبة قوية للهرب، ثم تذكرت أنني مقعدة”. حاول ويليام سحب النقالة ولكنه أدرك سريعاً أنه من المستحيل على رجل واحد أن يسحب الحمل الثقيل لمسافة تزيد على الكيلومترات، كما أن النفق أضيق من أن يتمكن من حملها على ظهره. فجأة علا صوت محرك في النفق، دراجة نارية، راكب وحيد متهرّر على دراجته المتهالكة كان قد جاء ليرى إن كان قد بقي أحدٌ من الجرحى، ووصل ناحيتهما. دراجتان أو ثلاث بهذه كانت مهمتها نقل الأشخاص وبعض الإمدادات داخل النفق، وكانوا يجدون صعوبة في الدوران للعودة على أعقابهما داخل النفق حتى في الأماكن التي يتسع فيها النفق قليلاً.

يروي ويليام: “دُهش لرؤيتنا هناك”. بمساعدة راكب الدراجة المعجزة انتزع إديث من “شرنقتها” من الأشرطة اللاصقة ووضعها على مقعد الدراجة، وطوى ركبتيها وقدمها بأكثر حذر ممكן حتى تستطيع الثبات على الدراجة بقدر الإمكان، ليبدأ من هنا سباق العودة المحموم. الدراجة المتنقلة تندفع في القناة وعليها ثلاثة ركاب منحنين تحت السقف الذي كان يحتك برأوسهم، وتوجه بهم نحو مدخل النفق. تقول إديث: “كانت الدراجة تصطدم بجدران النفق، وكدنا نقع. اصطدمت عدة مرات، ثم لاحظت أنني أنزف من الرأس. وبعكس كل التوقعات استطاعوا العودة إلى المدخل، ورفعـت إديث إلى فتحة المخرج.

عملية جراحية طارئة

على السطح رأى الناطيون السوريون بذهول إديث تظهر من فتحة النفق بالسروال الداخلي والجوارب، حيث إنها فقدت غطاءها الذي كان يلفها، وبرجلها المجبرة ووجهها الذي يغطيه الدم، وتطلب منهم لفافة سجائـر! حملها أحد الثوار على ظهره وتوجه بها إلى سيارة. عندما وصلت ثانية إلى المشفى دُهـش الأطباء بدورهم لرؤيتها. قال لي أحدـهم: ماذا تفعلين هنا؟ أتريدين أن تنتهي حياتك هنا؟ ردت عليه: إن كان بعد عمر طويل فلا مانع، ولكن ليس الآن”.

بدا الأطباء قلقين من عواقب تلك المغامرة على ساقها، وقرروا إخضاعها لعملية جراحية مستعجلة. بعد السباق المجنون تحت الأرض وليلة الرعب حُقـنت بمادة الكيتامين، وهو مسكن قوي والمعروف بتأثيره المهدـر، وأخضـعت لجراحة عاجلة. عندما استفاقت في الصباح الباكر عرض عليها الثوار السوريون الحل الأخير المتبقـي، وهو الحل الأكثر خطراً: الخروج من حمص بالسيارة عن طريق مسالك سرية. تقول إديث: “وافـقنا لأنـنا شـعرـنا بأنـنا على حـافـة الانـهـيار جـسـديـاً وـنـفـسيـاً، كان لا بد من الخـروـج”.

ليس من الممكن الكشف عن تفاصيل ذلك الطريق حتى لا تتعرض إلى الخطر حـيـاةـ الكـثـيرـ من الأـشـخـاصـ الذين سـاعـدوـهم في ذلكـ الجـزـءـ منـ الرـحلـةـ، لكنـ الصـعـوبـاتـ كانتـ جـلـيةـ وـالـعـلـمـيـةـ تـضـمـنـ مـخـاطـرـ جـمـّـةـ؛ لاـ بدـ لـهـمـ أـوـلـاـ اـجـتـياـزـ الطـوقـ الذي

يضرره الجيش حول المدينة بشكل شبه تام، ومن ثم الالتفاف حول العديد من الحواجز قبل اجتياز حقول الألغام المزروعة على طول الحدود اللبنانية، علاوة على أن وجودهم في المدينة صار معروفاً تماماً وأن نظام دمشق وضع رجاله في حالة تأهب قصوى. ومما زاد من تعقيد الأمر أنهم أثناء التنقل كانوا يتصورون إمكانية تجاوز حواجز التفتيش بعد التخفي ببطء رأس، وهو ما لم يعد ممكناً، فوجوههم صارت معروفة بعد بث صورهم على جميع وسائل الإعلام. بالإضافة إلى أن أبناء وصول بول كونروي ثم خافيير إسبينوزا كان قد وضع السوريين في حالة تأهب قصوى. إنهم مطاردون الآن على أوسع نطاق. مع ذلك سيحاول الجيش الحر المستحيل. سيسخر المنشقون كل شبكاتهم وقنوات التهريب لإخراجهما، واستمروا يقولون للعالم بأنهما ما يزالان في حمص للتمويه وخلط الأوراق.

أربعة أيام لقطع أربعين كيلومتراً

في الريف المحيط بحمص، وفي قلب عاصفة الثلج والبرد التي كانت تهبّ على المنطقة، انتقل الهاريون من مخبأ إلى مخبأ. استقبلوا -بالرغم من المخاطر- في بيوت كان أصحابها يحيونهم بأسمائهم. كان طريقهم في كل مرة يُستكشف بدقة بواسطة كشافة يعرفون كل الطرق الفرعية. احتاجوا إلى أربعة أيام لقطع الأربعين كيلومتراً التي تفصلهم عن الحدود اللبنانية، تروي إديث: “لقد عرّضوا حياتهم حقاً إلى الخطر من أجلنا، عملوا كل شيء من أجلنا”.

شيئاً فشيئاً وبالانتقال من سيارة لأخرى، مرة في مؤخرة سيارة بيك أب ومرة في مخزن شاحنة تهتز فوق الطرقات الحجرية الجبلية، تقدموا ببطء نحو الحدود اللبنانية، ووصلوا إليها أخيراً بحلول مساء الخميس. بعد عبور الحدود بعدها أمتار كلامت إديث والديها لطمأنتهم؛ “لم أقل لها أين أنا، قلت لها فقط إنني سليمة معافاة”.

الرابط الأصلي للمقالة:

ترجمة: جنان أسامي العوف

المصدر: مدونة الزلزال السوري

المصادر: